طموح الشعر أن يصل إلى جوهر الموسيقى

كتاب (الفضائل الموسيقية) لفوزي كريم

ومن يتذكر أعلام الغناء العربي مثل محمد وسريج وإبراهيم الهندي وما اخترتموه من ثقافة تحريرية، وقتئذ يتلازم الشعر مع التوشيحي، فالكتب الأدب والفن والفكر ما هي إلا فروع وأغصان وأوراق من شجرة التوشيحي، إلا الشعر فهو صنوها التوام. ومن المعروف أن كل فن يطمح إلى أن يكون موسيقى، إلى تلك اللغة العالية المجردة التي تداعب عواطف الإنسان وروحه دون كلمات، ودون لغة محددة.

واليوم ثمة القليل القليل من التوشيحي الجديد، حسبما تابع فوزي كريم ذلك، بما أننا لم مشدوفا بصار النتاج السمعي العربي، في ظل غياب تدريجي للموسيقى الشعبية الغنية، والكثير الكثير من التوشيحي الصناعية الاستهلاكية، التي بدأت تكتسح بعجالتها كل جذور التوشيحي الشعبية، وتقضي على منابتها الحياة العامة. اليوم يعتبر الشاعر العربي، إلا فيما ندر، التوشيحي تحريرا كمالية، ولا يتفقه منها إلا القسماء، والتوشيحي الذي يزعم لنفسه والإعلام له جدي، لا علاقة له بالثقافة التحريرية إلا كتحرير كمالي شأن صنوه الشاعر.

الأغنية الجديدة العربية كثر تهريجها من التوشيحي التهريجية الشاعة، لأنها تحاول أن تخلق وحدة بين شاعر لا يسمع التوشيحي، وموسيقى لا يقرأ الشعر. والمعروف أن الشعر ينتقل إلى التوشيحي بسحر يفعل على الإيقاع التوشيحي فيه وتتوحد في بحوره الصافية، وتبر الصافية على الأخص، وجاذبيته هذه ليست لا توشيحي ليحر ما توصف فيه أنها جنية، أو بليغة تلائم بلاغته.

لقد أصبحت اللغة في مرحلة تدريجية تالية لأداة التفكير العقلاني، وبالذات في جانبها النثري، في حين ظلت التوشيحي ذات مقاطع رمزي لعقل الباطن اللاواعي، ورمزيتها بعيدة الغور، عصية على الإدراك، وتلك الصفات تقارب جدا من صفات الشعر. ومن الصعب طبعا تبين جذور التوشيحي الأساسية، فقد تكون شكلا من أشكال التمادي الكندي والخوان الصفا فيعزون ابتكار فن التوشيحي إلى الفلاسفة، وهؤلاء الفلاسفة عادة ما يتوحدون في شخص فيلسوف اليونان ومتصوفها فيثاغورس، وفي نص اليوبي من أصل عربي، نذكره أمون شيلا أبوهو من كبار المتخصصين في التوشيحي العربية كما يقول فوزي، يرد أن ابتكار الآلات التوشيحية يعزى إلى جينون، وهو ابن لأمك الأعمى، إذ أن الشيطان جاءه في مقلوبات وعلمه صنع آلة البوق والآلة الوترية والصنج والمنطور، والكثير الحزف عليها، وحين كان يعزف كان الشيطان يأتي ويدخل الأنبة فتصدر عنها أعذب الألحان المؤثرة على بلاغته.

الغرابي، إن أن أداة التوشيحي لما تتوقف من النيل الطبيعي لدى الإنسان، من موهبة موسيقية داخلية، ومن قدراته الفكرية، فهو بحاجة إلى التعبير الغريزي عن أحزانه ومخاوفه وأفراحه بواسطة أصوات محددة ومتميزة، والتوشيحيال تملك قوة تأثير كبيرة قادرة على إثارة عواطف متنوعة ومتباينة، وإثارة الإنسان على تحمل وإنجاز أعمال شاقة. أما مفكرون مثل الكندي والخوان الصفا فيعزون ابتكار فن التوشيحي إلى الفلاسفة، وهؤلاء الفلاسفة عادة ما يتوحدون في شخص فيلسوف اليونان ومتصوفها فيثاغورس، وفي نص اليوبي من أصل عربي، نذكره أمون شيلا أبوهو من كبار المتخصصين في التوشيحي العربية كما يقول فوزي، يرد أن ابتكار الآلات التوشيحية يعزى إلى جينون، وهو ابن لأمك الأعمى، إذ أن الشيطان جاءه في مقلوبات وعلمه صنع آلة البوق والآلة الوترية والصنج والمنطور، والكثير الحزف عليها، وحين كان يعزف كان الشيطان يأتي ويدخل الأنبة فتصدر عنها أعذب الألحان المؤثرة على القلوب. علاقة التوشيحي بالشيطان كثيرا ما تقرن بعلاقته بالشعر، وللشياطين الشعر معروفة ومألوفة لدى العرب.

والسؤال الذي يلح عليه فوزي كريم فيما يخص الشعر، باعتباره شاعرا، هو علاقة الشاعر بالتوشيحي داخل كلماته وجمله وصيغه الشعرية، وما هي بالتقابل، طبيعة علاقة التوشيحي بالكلمات التي يستعين بها في أعماله؟ يجيب فوزي عن ذلك بالقول أن الشعر كفن يتطلع شأن الفنون الأخرى إلى التوشيحي، إلى خصائصها الجوهرية وهي الانفلات من تحصوص إلى المطلق، والانفلات عبر الرمزي إلى ما هو غير رمزي، والبحث في التعبير عن عاطفة جديدة يوافقها الجمال أصدق من العواطف السريعة الزوال والانفلات من الجزئي إلى الكلي. ويبرره شهادة إذ أس البوذا التي تؤكد على ذلك التلازم الفذ بين الشعر وجوهر التوشيحي حيث يطلب كتابة شعر يكون عاديا من أجل أن يلهمه سحة أدبية أو صنعة أو صياغة، شعر يقف عاديا في هيكله الجرد، شفافا بحيث لا نرى فيه الشعر، بل نرى خلاله ذلك الذي يهدف الشعر إليه. شعر من شفافيته أننا في قراءته ننكب على النهاية التي يشير إليها الشعر، لا على الشعر ذاته. هنا هو يبدو الذي أسعى إليه، يقول البوذا، شأن بيتهوفن، الذي كان اختبار ذاتي، الأفكار تتشابه وتتراكب وتتسوج من أجل تحقيق توازن مفتوح، في حين تتجه كل الأفكار المجردة في الشعر نحو المنطقي من أجل أن تكون عليها تتحلل انطباعا حول الطبيعة والمجتمع، ويمثل الإيقاع في التوشيحي وفي الشعر، كما في الطبيعة تماما، قوة لحياة وغيابه يعني الموت. يحرص على ذلك كل موسيقي وكل شاعر، كما يحرص القلب الإنساني على ذلك بنبضه، وجذور الطبيعة بنبضها.

وحدة الشعر والتوشيحي التي أخذ بها فاتحو الجانب رحيل غامض إلى مملكة الأعماق المظلمة لكائن الإنساني، مملكة الأحلام والغرائز والنوازع السرية، وعد فيها الفيلسوف الشاب نيتشه فردوسه، فتمة شيء، مخيف يكمن في قوة الفن، حين تحقق من أعماقنا ما هو شيطاني من يبادر الشاعر في الثانية يبادر التوشيحي، لكن عبرا بإيقاعه، لا يتفق مع الرمزيين تماما بل يعرف الفارق بين فني التوشيحي والشعر بدقة، فالأول فن تجريدي يتجه إلى الداخل، باحثا عن صياغة دقيقة له عبر اختبار ذاتي، الأفكار تتشابه وتتراكب وتتسوج من أجل تحقيق توازن مفتوح، في حين تتجه كل الأفكار المجردة في الشعر نحو المنطقي من أجل أن تكون عليها تتحلل انطباعا حول الطبيعة والمجتمع، ويمثل الإيقاع في التوشيحي وفي الشعر، كما في الطبيعة تماما، قوة لحياة وغيابه يعني الموت. يحرص على ذلك كل موسيقي وكل شاعر، كما يحرص القلب الإنساني على ذلك بنبضه، وجذور الطبيعة بنبضها.

وحدة الشعر والتوشيحي التي أخذ بها فاتحو الجانب رحيل غامض إلى مملكة الأعماق المظلمة لكائن الإنساني، مملكة الأحلام والغرائز والنوازع السرية، وعد فيها الفيلسوف الشاب نيتشه فردوسه، فتمة شيء، مخيف يكمن في قوة الفن، حين تحقق من أعماقنا ما هو شيطاني من كان مستعدنا لفن العزل في الشعر والتوشيحي، وكلاهما، كبير ومر، استلهما الفارسي القادم جلال الدين الرومي واستلهما ما هو جوهري من أغاني الشلوي، وحفظ له الشعر الهندي أكثر من أغني أغنية، وتخرج الإنكليزي بيار بروك، حين أخرج ملحمة المهابهارتا، افتتاحها بأغنية لجانون، وأغنيات مقاهير كانت القاعدة الموسيقية لمعظم أفلام المخرج الهندي الكبير ساتياجيت راي.

أنجاح فوزي كريم في كتابه الفضائل الموسيقية على هذا التلاحم والتلازم بين الشعر والتوشيحي، وطموح الشعر كي يصل إلى مقام التوشيحي، خاصة وقد قدره فصلا كاملا لتحليل أحدى قصائده (رباعية نوفيك)، استنادا إلى المصطلحات والمفاهيم التوشيحية الغربية، لا يفصل عن معركته الكبرى التي خاضها في كتابه ثياب الإمبراطور مع قصيدة النثر.

حيث أنه نفي في ذلك الكتاب، صفة الشعر عن القصائد العربية الحديثة التي تخلى فيها شعراؤها.

وهم غالبية الجيل الجديد، عن الوزن والإيقاع لذلك كله لم يكتف بإبراز شواهد على ذلك التلاحم من الشعر والتوشيحي والملاحقة الغربيين.

بل عرج أيضا على التوشيحي الهندية ذات الروح الديني والطقوسي الدعائي.

ثم قارب التراث العربي القديم، مفسرا فصلا كاملا عن مغنيه وحكاياتهم مع الشعر والتوشيحي والفقه.

وكأنه يمتد شرعية معركته مع قصيدة النثر.

لا من التراث الإنساني فقط، لكن من التراث العربي أيضا.

كتاب الروح والجسد

كثيرا ما كنت أسأل الجسد، عندما أتكلم عن الأريكة؟ أقول: هذا المكتب، كيف تتبسط الروح..؟ بل كيف يتغلب الشعور على المكتب..؟ وهل استطاع التنامي من سكر الأول..؟ وقد أبدو حزينا التي تسلمت الحقائب بالرفض وعدم الاستطاعة والندم.. وقد لا أبدو كذلك، فلا ينقص ضوؤه في روحي شعدنا، ولا أكذب ربما منه لا تقصدني، أحل انتصاره علي، ولا تفرحني هزيمته بعيدا عن يدي، لا أفرق بين نبوته خارج تفاني أو أعيار في خارج أنفسه، فما كان أبدا في فرصة الاختيار.

حفظت له، وحفظ لي، وحفظنا معا من أجل لحظة لم نستكر نهايتها بعد. أحببته أنا مات، وأحبت حين أحببته. عذبته وسمحته أنا، وكنت قد أخذت مباه على التقاعد كلها، كانت مفرغة، وكان مفرغي، وعندما نزعت رمش الشك من جناحي فطرت عليه. أبعد من سحابة كان جناحي، لكن يمكنك الفضاء ولا أمتك البعد. وأرضه كلها تحت عقل ربابه، فلا أغير لا مشدودا إليه، وهو يومين أن أبلعه، ويومين أن أقترب، فأهمس سؤاد الحيرة والذهول، ولعدني عن الرفض والقبول.

يا أيها الجسد الخالد، أيها الأبدي، هذا أن انتصارك لهزيمتي أن تولك، كان أبدا عن ذلك، فلا كنت أبحث كنت عن صحبة، فلقي الشاعة، هل نلت من سرابك تبيتا، أي أمنتني الترحيب من احتضار الدمع وأسره الجثار من الغيب، هكذا كمن وهلتك مع مهر يعقل، عتبه أجتو أعاتبك أسأل الليل عندك أن يعقول، منكما أعارض على التراث البنفسج في الكرنفال. كنت مأعارق لولا تبادلك في التراث ولو لم تكن فاترا عني أي فرحي الانهمرت أما عليك، أبدا لم يكن فصدي أن أستبيح النور الداخلي سرا على الطفولة، لكني كنت أتكلم غيابك على المتلقي، وأنت تعلم معنى الحقيقة التنقية، ودع يهلهم الجسد شرعي الغة الأولى. أن له أن تلوته الإيقاع وتسوره الوهوش، فالحق لا يؤلك الحلش والغريب، أما أنت أيها الجسد، أيها المدى المتجمع على الحضور، فقد أن تسدودك أن تنهدك، أن تعمرك أن يعقول ويغلب، وأن تخرج بعفطك وحروبك معا.

حفظت لكي تنهدك، وقد قالت النابي: سمي السار سرا أبهتك، فالنظر المسالك وهي تنسى، والنظر لتسمك وهي تعرب. هل تميل لا على رأسك، وأنا وحدي، أنا بينا الكلوت فلدي كلفك بمطالع الدنيا كلها والتحدي بجنبك الرضين.

كان أبدا من عبورك، على سرفات الخطيئ وهي تتقلب بذراعها الأزلي تحت أقدام الخطايئين الأول. وأنك لم تبذل نفاح النادمين لم تستطعم الاندحار. ولم رأيت كيف تفسر المصطفر الشك، لو كان فؤادك سطة وحيدة في الريح، لأدركت معنى انفلات الزمن واستيلاق الوجود.

أجعل لعدك نصيبا في جسدك هذا، وارفق بحرفك وصحاريه. فما كان الله أبدعت زرعا لم يفتق له ماء، وما أتى بهاجرة إلا وأكرمها بالظل. فلا تعطلن بعض صفاته وهو الغفور. ولا تحرمن نفسك من مرضاته وهو العفو تقرب إليه بمعصيتك يتقرب إليك بلطفه. وأسأله على خفق قلبك وارتجاف قاصيك، فقد خلقت للحظات، ومنحك الرخص. وهو الذي يحب أن تأتي رخصه.

لم أكن يوما أشغل عنك، ولم أدعك لذلك محرمة. وقد وهبني الشرائع وأباح لي السنن. فأفصل الإباحة، وريث الروح الكبير فدعاني قلبي له طعما في محبته، فتدرجت معه عن صغائر الناس، وأعطيته ما خصصت به من الود، وما أحطت عليه الحنايا من الأمان. ومدات قلبه ما تقرر به من الثق والجمال. فانتفضت تعبته فرد، ووقفت على أعتاقه بين يدي. فكان عندي خلاصة النهار، وتطفل الحين على الحين.

أصبحه فلا تسبحه الصلاح، وأبي الأحبس لحظته تخارج في أبدي. حتى وددت لو يبتاني الرأس المفتوح من مقدرتي فيقبل. لاستقت من الكتان إلى العري. وكنت قد صحبت على الأهداب المطوية المتسدة، ضحى كاملا للتنبين الليل من النهار، حتى أخبر حتى الأعمرن إلى الأعمرن. ومهما للتوبيت بنار لا تعرفها النيران. فلنا في حضرته سكران لا أجد الطريق. أبعد من يدي مواضعة الصديق. وأقرب الشفاعي لنفاس العريق. لا أجد في يدي ما احتال به. ولا يغمس على فاتنتي. أحبه لانتصاره علي، وأبغضه لرحمة في يدي. فلا قدرية حتى أبدأ في، ولا بعده نسيان لدي. فالجسد وعدا والروح محتوى. والجسد فحط والروح لطف. الجسد من تراب والروح من أمر الله. والروح محقوق قبل الجسد. وهو قديم والجسد محدث. الجسد يبلى والروح لا. الجسد ينطق والروح نومن.

فأين أنا..؟

أين أنت..؟

أينا..؟

(*) فصل من كتاب أبي الخصيب.

المرأة والنورس

لم يحط طائر النورس على حافة النهر كما توقعت المرأة، بل غير مساره في اللحظة الأخيرة، وابتعد بسرعة، ليختفي خلف الجسر.. شعرت المرأة بالغبن، وبقيت تحدق إلى الجهة التي غيبت النورس.. لعل النورس في لحظة مزاج مغاكس يعود ثانية، قريبا، يحتر لحظة.. ينتظر إليها فتلتقي عيونهما.. فكرت، ماذا سيقول النورس عنها؟! وضحكت.. لا في سرها، وإنما في عري الهواء والضوء.. البارد.. ضحكة قصيرة، ذات رنين رائق.

- لماذا تضحكين؟

بادلتها صوت منغم ناعم فالتفتت، وقد اعتراها الارتباك.. كانت نظرة الطفل الواقف وراءها هادئة ومصممة.

- من أنت؟

أنا عادل.. لماذا كنت تضحكين؟

- هكذا.. على النورس.

أي نورس؟

- ما الذي جئت تفعل هنا؟

الحب.. ألم تقولي أني أي نورس؟

- كان هذا أيضا.

وما الذي يضحك في هذا؟

لا أخاف الحب على الطفل؟

ولم أخاف؟ أنا لا أقرأ النهر في الشتاء.. هل في النورس ما يضحك؟

كان يقف على الحافة، لكنه غير رأيه في اللحظة الأخيرة.

ولماذا يحملك نورس خاف أن يقف فريك لتضحكين؟

- لم لم تذهب إلى مدرستك؟

اليوم الجمعة.. أم تخبريني..

حسنا.. أنت تلح في الأسئلة.

أريد أن أعرف.. قولي لي.

أنصتت المرأة واقفة، وأسلمت حقيبتها من فوق الكعب العريض الذي كانت تجلس عليه.

أنت تغادرين.. لكن أرجوك.. ماذا حصل بينك وبينه وجعلك تضحكين؟

خطت المرأة خطوات مسرعة، وهي تهم بالابتعاد.. أحمل بها الطفل.

- فقط قولي لي.. لأضحك أيضا.

صار على مسافة من الناظر.

انظري.

هناك على الشاطئ حط طائر نورس.. قال الطفل.

لقد عاد مع زوجه.

مشت المرأة من دون أن تشيح بشيء.. صاح بها

الجمعة القادمة، هل ستأتين؟

- سآتي.

وحدك؟!

لم تجب المرأة.. تصرها حزن صاف.. أرادت أن تلتفت تحيي الطفل، بيد أنها لم تفعل.. فكرت، لعله يضحك الآن.

في انتظار البرابرة

في أوقاته الهرمة هذه، بين رائحة الوحشية، وهدوء أبون علاء الغرفة، وصدى غياب المرأة الغريبة في حياته منذ عشرين حولا يكتبه عبد الليل الذي يطول، وآلام المفاصل التي تهيج، والنوم الذي لا يأتي.. وفي كل ليلة يقوم مرات، يتنقل لتأكد من أنه أقفل الباب حقا، من مواضع ثلاثة، وليتحدث إلى عطوتات لو أبقاني محتجنة لتزهد في الدمر قبل أن يعود ليطمئن على كل نقوده الذي يرقد عليه ويرتفع سنة بعد أخرى بفرائشه أعلى وأعلى.. يتحسس مصحفه الهيأ للإطلاق تحت مخدته، ثم يحدق في الخطف السود، تتشاغب في رأسه تكسرات أصوات النهار.. صياح الباعة، وصادمات الزبائن، وزعيق السيارات، ثم الفي، ذاته يتكرر في كل ليلة، يسلب منه سلام روحه.. الوحشية والألم والخوف.. فهو لم ينم نوما عميقا متصلا منذ سنين، ومثل كل ليلة تخل منبهاته الإنجليزي القديم.

لم ينتظر على الأعمة بعينيها، وحتى صوت أم كلثوم لم يأخذه كما في الماضي.. أن يبهجه ذكرياته. وما كان يطيق الأخبار (وما الذي يهمني منها؟!).. ولا برامج التسلية التي لا تحرك فيه عصبا.

هو بين النوم واليقظة، في ذلك الزرع الرجراج العذب، يحمله أن الفقاعة مخطوطة محفوظة بالكوابيس.

تهيأ له أن أحدهم دفع الباب.. شتم نفسه لغفلته وغبائه، وهب والمسدس في يده.. دخل رجال ثلاثة مسلحون.. أطلق رصاصة أول أصاب أحدهم في كتفه، وقع صارخا..

أطلق رصاصة ثانية أصاب آخر في ركبته، كبا على وجهه.

غير أن الثالث هاجمه برصاصة اخترقت فخذه وبرك هاذيا.

وجد نفسه في المستشفى، يحيط به أطباء وممرضون ورجال شرطة، وجمع من زملائه أصحاب المكاتب في السوق.. قال له الحاج منذر البزاز:

الحمد لله على السلامة..

يحاول.

قال له عبد الله الضباب:

- من كان يتوقع أن تفعل هذا؟

قال له كمال صاحب المكتبة:

حتى الصحف كتبت عنك.. كانت تلك عملية خطرة.

كان مفعما بالانتشاء، وهؤلاء ينظرون إليه بإعجاب وحب.. أول مرة يشعر أن الآخرين صادقون..

أغلق عينيه.. فتحهما.. كان الخلاط والمكون يفسرانه، وقد تحامان في الوحشية والألم والخوف.. كان خفيفا، ونعسانا حقيقة.

لم يرد أن يقوم ليتأكد من أقفاله الباب من التوضيح الثلاثة.

لم يتحسس مسدسه تحت مخدته، لم يبق عينيه مفتوحتين يحدق في السقف.. كان يريد أن ينام على الريعة من تموج الأفريقيا في فخذه يفعل رصاصة الرجل الثالث.